المستقبل يتحدى

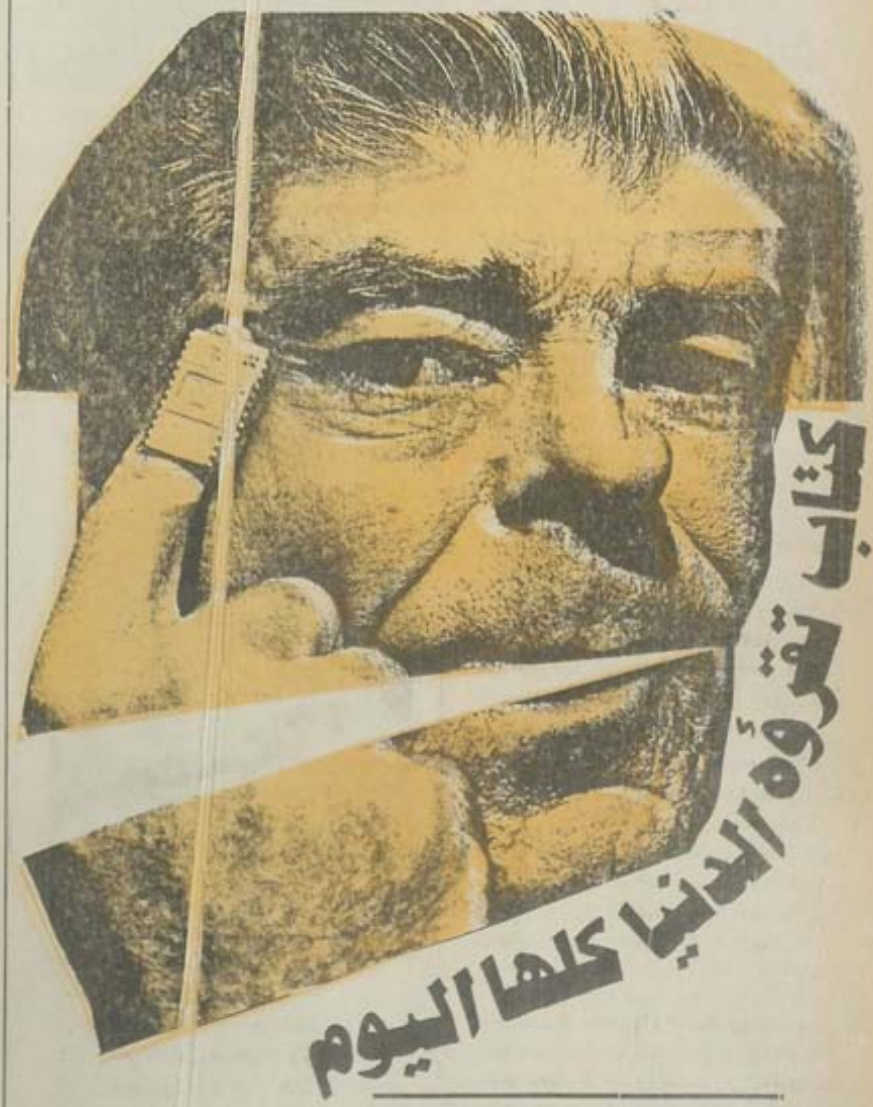

كتاب تقرؤه الدنيا كلها اليوم

د. حسين مؤنس

كان عقد السبعينات محيا للآمال . فلم تتحقق فيه مكاسب كافية فى الكفاح ضد الفقر وعواقبه التى تسحق الحياة . وقصر الاقتصاد العالمى عن بلوغ التوسع المستمر اللازم للتحرك بسرعة وفعالية أكبر بكثير فى الكفاح من أجل تخفيف حدة الجوع والمرض والأمية والبطالة وقلة المساكن المناسبة تخفيفا كبيرا . وأصبح العالم يدرك نتيجة خيبة أمله – أن ثمة حدودا لموارده القابلة للاستغلال .

ولعل أشد مايبعث على الشعور بالخيبة هو أن مجموعتى البلدان الصناعية والبلدان النامية لم تحققا قدرا أكبر من التفاهم فضلا عن الاتفاق على كيفية معالجة هذه المشاكل بفعالية وإنصاف » .

من تقرير الأمم المتحدة عن برنامجها للتنمية فى عام ١٩٧٩ .

وهذا التقرير الأسيف يقول فى بعض فقراته إنه خلال سنة ١٩٧٩ قدمت – رغم ذلك – خدمات أكثر لعدد أكبر من الناس فى عدد أكبر من البلدان ، تفوق ماقدمته الأمم المتحدة فى أى وقت مضى طيلة تاريخها . ولهذا الغرض قامت الأمم المتحدة بتجميع أكبر قدر من الدعم المالى التطوعى سبق تجميعه من الحكومات فى جميع أنحاء العالم .

ومعنى ذلك أن مأساة العالم الذى نعيش فيه بلغت من الضخامة مبلغا أصبح معه من المستحيل تخفيفها ، فضلا عن علاجها ، وأن تسعين فى المائة من البشر ينحدرون اليوم نحو هاوية سحيقة من الفقر والحاجة والجوع وفقدان ضروريات الحياة

والعشرة فى المائة من البشر الذين لايعرفون إلى الآن الفقر الأسود والجوع الكافر والتدهور الاجتماعى الخطير ، لابد أن يعرفوا ذلك كله فى يوم قريب أو بعيد ، لأن الحريق الهائل إذا شب فلابد أنه سيشمل الجميع ، وستكون الصيحة فى القريب : إن الطوفان يتعالى حتى يغطى أعلى القمم ، ولاعاصم اليوم من أمر الله

■ ■ ■

والأمم المتقدمة أو الأمم الصناعية الغنية ، أكثر شعورا بذلك الخطر من الأمم الفقيرة المتخلفة ، ولادواعى للمخاطف فى القول وتسميتها بالأمم النامية ، فإن الألفاظ الجميلة لاتشفى الأمراض ، والأكاذيب المنمقة لايمكن أن تخفى الحقائق المريرة

وشعورها هذا يرجع أولا – إلى أنها لاتريد قط أن تنحدر إلى هاوية الفقر والتعاسة ، وثانيا لأنها تعرف أنها هى نفسها بعض أسباب تعاسة الآخرين ، فهى تساعدهم قيراطا وهم يقهرهم قراريط ، وأبسط دليل على ذلك هو أن الحرام من الدواء يكلف مصانع الأدوية فى الغرب خمسة قروش ، ثم تبيع المصانع نفس الحرام لمن يحتاجون إليه بخمسة جنيهات ، أى بمائة مرة قدر تكاليفه . وهذه هى النسبة التقليدية المتعارف عليها بين تكاليف ما يصنع فى الغرب والأسعار التى تباع بها المصنوعات فى الأسواق العالمية . دائما نحن ندفع للمنتج الغربى مائة مرة تكاليف إنتاجه سواء أكان ذلك الإنتاج زجاجة دواء أم دراجة أم طائرة . وتشتى من ذلك الأسلحة ، فهى تباع بألف ضعف تكاليف إنتاجها ، وروسيا على رأس قائمة المستغلين

فى هذا المجال . فاليد الساذج الذى يطلب السلاح من روسيا ينتهى حتما فى جوف الدب . وآخر مثل لذلك أفغانستان .

والغرب يختنق بالتخمة لكثرة ما يأكل . فتنتابه أمراض الذهور الخلقى والتحلل الاجتماعى والقلق السياسى والبطالة وجماعات الإرهابيين من ناحية . ويقتله الجشع من ناحية أخرى . وسيغرق روسيا فى النهاية . سيغوص بما حملت فى اليم . سيغرقها الأمم التى افترستها وأكلتها . وهاهى ذى تدر الانفجار الهائل تبدأ فى بولندا . وفى مؤتمر مدريد للأمن الأوروبى فى شهر نوفمبر ١٩٨٠ أحست روسيا بشر اللهب . وضحك الناس من كلام مندوبها الذى يتحدث عن العدالة والحرية وفى جيبه جريدة البرافدا وفيها بيانات مطولة عن شهداء الحرية فى أفغانستان . وقتل حقوق الإنسان فى كل شبر من أرض الاتحاد السوفيتى الشاسعة .

والبرافدا – وهو لفظ روسى معناه الحقيقة – عنوان ناطق على الجرأة البالغة على الله والعدائم الحياء ورهبة الطوفان الذى سيغرق روسيا مع الآخرين . ولاعاصم اليوم من أمر الله .

وخلاصة تقرير الأمم المتحدة الذى أشرنا إليه هو أن الإنسانية كلها مريضة بداء يكاد يكون مستعصيا على العلاج .

وهو مستعص على العلاج لأن الذين يبدهم العلاج غير صادقين فيما يفعلون ويقولون . لأنهم كانوا يظنون أن الآخرين فقط هم المرضى . أما هم فهم خير وعافية . فعندهم العلم والمال والصناعة . والآخرون لاعلم عندهم ولامال ولاصناعة .

وكانوا يحسبون أنه كلما كان الآخرون أفقر كان ذلك أضمن لغناهم وصحتهم وقوتهم . فهم وحدهم الذين يملكون كل شئ . وهم وحدهم الفئة الناجية .

وعندما تبينوا فى النهاية أن الإنسانية جسد واحد . وأن الطوفان الذى سيغرق الآخرين سيجرفهم أيضا أفاقوا من غفلتهم وأسرعوا يمدون أيديهم للغريق الذى لم يبق طافيا منه على وجه الماء إلا رأسه .

وهنا تبينوا أن الأوان قد فات أو يكاد . وفى آخر لحظة تمكنوا من القفز فى آخر عربة من عربات قطار الزمن الذى يمضى إلى غاية مجهولة .

وفى القطار المجنون أخذوا يحاولون التفاهم مع أهله . وهم نحن أهل العالم الثالث . فى مشاكل الحاضر والمصير . وكيف يمكن ضبط الحاضر وتقرير المصير . لأنهم تبينوا – وهم أعلم منا وأكثر خبرة – أنهم لايستطيعون تقرير هذا المصير بدوننا .

فنحن وإن كنا نسير وراءهم فى ميدان العلوم والصناعات . فإننا نملك معظم المواد الخام . ولايمكن تقرير شئ بدوننا .

وهذه هى الحقيقة التى تبينت لجان جاك سرفان شرايبر صاحب الكتاب الذى نعرضه اليوم وعنوانه : التحدى العالمى .

Jean- Jacques Servan Schreiber. Le Defi Mondiel

وجان جاك سيرفان شرايبر شخصية رئيسية فى عالم السياسة والفكر والصحافة فى فرنسا وأوروبا كلها . فهو صاحب ورئيس تحرير مجلة الإكسبريس الأسبوعية . وهى تقابل مجلتى تايم ونيوزويك فى أمريكا و « دوشيجل » فى ألمانيا . وهى أوسع الصحف الفرنسية انتشارا على الإطلاق .

وهو رئيس حزب سياسى صغير . وكان وزيرا ومؤلف كتب كثيرة . منها التحدى الأمريكى : الذى يعتبر من أعظم الكتب التى كتبت فى السياسة العالمية خلال السنوات . وآخرها هذا الكتاب الذى نعرض له الآن .

وهو كتاب يقرأ الآن فى ١٧ لغة . ويباع بالملايين . ويثير ضجة كبرى فى أوساط السياسة العالمية .

ولابد أن نضيف هنا أن جان جاك سيرفان شرايبر رغم شهرته البعيدة فليس له فى بلاده وزن سياسى يعادل شهرته . فله آراء وشطحات تجعل الكثيرين ينظرون إلى

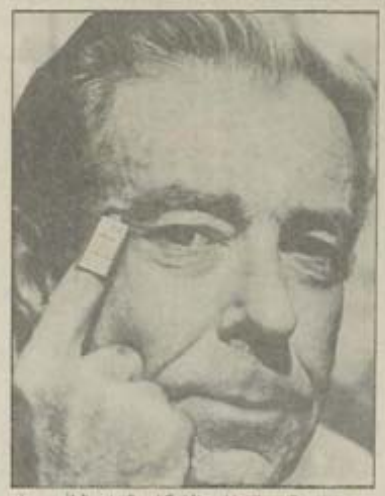

جان جاك سيرفان شرايبر مؤلف كتاب التحدى العالمى . وقد التقط بطرف عباءته جهازا من أجهزة الخلايا الالكترونية والمعروفة باسم الاكسرمانيك . حجم الواحدة منها ٢ مليمتر مربع . وهى تقوم بعمل حاسب الكترونى ضخم يملأ نصف حجرة .

مايكتب ويعمل بحذر . ولم يكن ديجول يرضى عنه كثيرا . ولاهو كان على وفاق كبير مع بومبيدو . وفكره السياسى أوروبى صرف . فلا اعتبار حقيقيا عنده لشعوب العالم الثالث . وسنرى فى كلامنا عن كتابه الزاوية التى يكتب عنا منها . فهى أقرب إلى زوايا الاستعمار منها إلى زوايا الأحرار والمفكرين فى أواخر السبعينات . وبعد حرب أكتوبر بصفة خاصة .

■ ■ ■

وفى مجال محدود كهذا الذى نكتب فيه لانستطيع التعرض لكل الموضوعات التى يتناولها كتاب « التحدى العالمى » خاصة أن معظم هذه الموضوعات تهم بصفة خاصة الأوربيين والفرنسيين . لهذا فسنكتفى بالكلام هنا عن موضوعين رئيسيين من موضوعات الكتاب الأول هو موضوع التغيير الشامل الذى يمر به العالم اليوم . والثانى هو موضوع البترول العربى ومثال العربى . وكيف يمكن للعرب أن يشاركوا به فى صنع ذلك التغيير .

أما التغيير فهو فيما يرى جان جاك سيرفان شرايبر أبعد مدى من أى تغيير مر به عالمنا هذا . فالتغيرات الحاسمة التى مرت بها حضارة البشر نتيجة للثورة الأوربية هى الانقلاب الصناعى والاجتماعى واستخدام البخار ثم الكهرباء ثم الألكترونيات . تبدو صغيرة جدا إذا قورنت بالتغير الشامل الذى يمر به العالم اليوم . والذين يحدثون هذا التغير هم التكنولوجيون فى ميدان الألكترونيات فى اليابان بصفة خاصة . وهو يعتقد أن رياح التغيير ستأتى بالعالم بين أيدى اليابانيين الذين يقودون الآن ثورة حقيقية تسمى ثورة الخلايا الألكترونية الصغيرة التى لايزيد حجم الواحد منها على مليمترين مربعين . ومع ذلك فهى تقوم بما يقوم به جهاز حاسب الكترونى كامل .

وقد سبق أن اكتشف العلماء من عشرين سنة مايعرف بالدوائر الألكترونية المغلقة التى تسمى باسم Closed Circuits أو باسم اختصارا .

والخلية المغلقة فى دائرة كهربائية كاملة مساحتها مليمترات . وإذا دخلها تيار كهربائى ضعيف دار فيها دورات سريعة تتضاعف معها قوته . وبفضل هذه الدوائر المغلقة أمكن صنع جهاز الترانزيستور الذى تحركه بطاريات صغيرة . وتستطيع أن تضعه فى جيبك . وهو يقوم بنفس العمل الذى يقوم به فى الماضى جهاز الراديو الضخم الذى كان يعتبر قطعة موبيليا لكبره وثقل وزنه .

ولاشك فى أن الترانزيستور كان ثورة صناعية غير التكنولوجيا كلها رأسا على عقب فإن الترانزيستور لايدخل فقط فى عمليات الإذاعة والتسجيل . بل هو يدخل فى كل شئ . ولولا الترانزيستور لما أمكن قط صناعة الطائرات الضخمة . لأن كل مافيها يسير بالكهرباء . فإن أجهزة الكهرباء فى طائرات العشرينات والثلاثينات كانت تزن مايين طن وطنين . وكانت تكون ربع وزن الطائرة . أما اليوم فهى لاتزن باستثناء المحركات – بضعة كيلو جرامات .

وقد تمكن اليابانيون من السيطرة على عالم الترانزيستور وميكانيكيته بسرعة وكفاية . وانتزعوا من أيدى الغرب صناعة أجهزة الإرسال والاستقبال بكل أحجامها . وصناعة أدوات التصوير وصناعات التسجيل الصوتى والساعات . نعم إن الغرب يصنع ذلك كله بكفاية لاتقل عن كفاية اليابانيين . ولكن ضخامة الإنتاج اليابانى لاتصدق . بل إنها تفزع الغرب كله .

■ ■ ■

وقد أصبح اليابانيون اليوم مشكلة كبرى للغرب . فهم يغرقون الدنيا بصناعاتهم إغراقا وقد كان الغربيون يقولون فيما مضى إن المصنوعات اليابانية هشة . وإنها تقليد لما

المستقبل يتحدى

يصنع فى الغرب ، وإنها نتيجة لذلك لأنضاهى مايصنع فى الغرب ، وربما كان الأمر كذلك من ثلاثين سنة . ولكن الصناعة اليابانية اليوم لاتقل متانة عما يصنع فى الغرب ، وإذا كان حقا أن اليابانيين يقتبسون الأفكار والصناعات الغربية ويقلدونها فى بعض الميادين ، فلابد من الاعتراف اليوم بأن اليابانيين يتفوقون فى كل ميدان . وحتى مايقلدون الغرب فيه ، فإنهم يصنعون هذا التقليد بصورة تفوق الأصل إتقانا ومتانة . وهم دون شك قادة العالم فى أجهزة الترانزيستور والدوائر المعقلة ، وهم اليوم يقودون التحول العظيم من العقول الالكترونية وأجهزتها بشتى أحجامها إلى صناعة المنظمات أو الحاسبات وحازنات المعلومات وواضعات البرامج على أساس الخلايا الألكترونية الصغيرة التى تسمى بالانفورماتيك Informatics ومساحة الواحدة منها لاتزيد كما قلنا على مليمترين مربعين ، ولكنها تختزن من المعلومات مايختزنه جهاز ضخم يحتل نصف حجرة .

وإذا ترك اليابانيون وشأنهم فإنهم لاشك سيقبضون على ناصية القرن الحادى والعشرين بتفوقهم فى عمل هذا النوع من الخلايا الألكترونية التى تعتبر ثورة تبدأ فى تاريخ العلم والسياسة والاقتصاد عصرا جديدا .

ويقول سرفان شرايبر إن اليابان هى الخطر الأكبر الذى يهدد الغرب من الناحية الاقتصادية والتكنولوجية ، فهم فى نظره أمة تحيرت فى أمرها الأذهان ، ويقول : وأنا وغيرى من الفرنسيين كنا نقول : إن اليابانيين ينجحون لأنهم عبيد العمل وإنهم يكسبون لأن عالهم لايتقاضون أجورا تذكر . وقد قيل مرة فى مؤتمر عقد فى بروكسل ، إن اليابانيين مدمنون للعمل Les Alcooliques du Travail وإنهم يعيشون فى أكواخ

وعندما ذهبت الى اليابان اكتشفت حقائق أخرى ، فهم أذكياء جدا ، وهم يعملون فى اليوم ساعات معقولة أقل بكثير مما كنا نتصور ، وهم يتقاضون أجورا قريبة جدا من الأجور عندنا ، وهم ناس عندهم صبر وأناة وحسن تدبر واحترام للآخرين ، وشيئا فشيئا اكتشفت باليابان نختلف كل الاختلاف عما كنت أتصوره إلى ذلك الحين .

ولقد التقيت فى مكتب صغير فى مدينة كيوتو رجلا من أعجب رجال الدنيا ، إنه كونوشى ماتشوسيتا الذى أنشأ أكبر مصانع اليابان تقدما إنه فى الخامسة والتسعين من عمره ، وهو يمارس عمله بكفاية ونشاط يدهش له الإنسان . لقد تنازل عن بعض سلطاته لبعض مساعديه من سنوات قليلة لكى يتفرغ للاعداد لما يهمه أكثر من أى شئ آخر ، وهو المستقبل وهو يهتم بالشباب ويعدهم لمسئوليات الغد ، ومن ذلك أنه أنشأ معهداً لمديرى الأعمال فى القرن الحادى والعشرين ، وهو يختار للدراسة فى المعهد شابا ممتازا يستطيع تصور القرن القادم ومسئولياته ، وقد أوقف على هذه المدرسة أكبر جانب من ثروته الطائلة .

■ ■ ■

فى هذه اليابان العجيبة التى اكتشفتها بنفسى وجدتهم يهتمون اهتماما بالغا بالمواطنين منذ الصغر ، ومن سن السنوات الثلاث بل الشهور الثلاثة . إنهم يحرصون أشد الحرص على تربية المواطنين مرحلة بعد مرحلة فهى تلك البلاد التى تعتبر الرجل فى سن الخامسة والثلاثين شابا ينظرون إلى كل صبى على أنه مواطن كامل وهام . لقد عرفت هناك كذلك شابا فى الخامسة والثلاثين ، هو السير دوكو رئيس نقابة رؤساء الأعمال ، لقد اختار هذا الرجل رجلا آخر فى الخامسة والسبعين ليخلفه فى عمله بعد بضع سنوات . هذا الرجل الثانى يدير اليوم أكبر شركة صلب فى اليابان ، وهى شركة « نيبون ستيل » وهى شركة الصلب الوحيدة فى الدنيا التى تكسب مالا لأن كل شركات الصلب فى الدنيا تخسر إلا هذه وعندما يتولى هذا الرجل مسئوليات كونوشى ماتشوسيتا فيخلفه فى إدارة « نيبون ستيل » رجل فى الخامسة والسبعين هو المدير الحالى لشركة « نيبون الكتريك » وهى من أكبر شركات الكهرباء فى الدنيا

فى اليابان يحترمون الإنسان احتراما بالغا ، من سن شهر واحد إلى سن المائة يلقى اليابانى من مجتمعه كل عناية وتقدير واحترام ، وإذا كان اليابانيون ينجحون فى كل مايتولونه من أعمال ويحققون أرباحا طائلة ، فإن السبب فى ذلك ليس قلة الأجور أو اسرافهم فى العمل ، بل لأنهم يحترمون الإنسان ويقدرونه ولايبخسون قدره أو يهينون كرامته قط ، هذا مجتمع صلب متين البنيان كأنه حصن شامخ مبنى من طوب سليم ، كل طوبة منه تعدل أى طوبة أخرى .

وإنى لأسأل من أعرف من كبار المسئولين فى فرنسا : كم تلميذا فى المدارس الابتدائية عندنا يستعمل الأجهزة الحاسبة فى الفصل ؟ بل كم غلاما فرنسيا فى المدرسة الابتدائية رأى فى حياته جهازا حاسبا ؟

إن تلاميذ المدارس فى اليابان يستعملون الآلات الحاسبة وطلاب المدارس الثانوية يعرفون كيف يسيرون حاسبا الكترونيا كبيرا وفى الولايات المتحدة بدأوا بذلك فى كاليفورنيا مدرسة ابتدائية يتعلم التلاميذ فيها كيف يستخدمون الحاسبات وهم يعرفون إلى جانب ذلك الحساب بالورقة والقلم والبنات فى المدارس الابتدائية يتعلمن الكتابة باليد وبالآلة الكاتبة فى نفس الوقت . إنهم يعدون شباب الغد بأدوات الغد ، بعقلية الغد ، لأن هذا الغد – القرن الحادى والعشرين أقصد – يختلف كل الاختلاف عن قرننا العشرين هذا إننا نمر بثورة علمية صناعية كبرى ، فإن حاسبات الانفورماتيك التى تعتبر عربة اليوم ستصبح نقطة البداية فى العلم فى القرن الحادى والعشرين ، فإذا كانت هذه هى نقطة البداية فكيف ستكون نقطة النهاية يارى .

إننا نقف أمام تحد رهيب : تحد علمى اقتصادى لن يستطيع الصمود فيه إلا رجال أعدوا له إعدادا تاما لأن كل مشاكل الحاضر فى الغد ستحل بالأجهزة الجديدة والأرض التى يدوس اليوم انها تضيق بأهلها لن تضيق إلا على الجاهلين أو الأمم الجاهلة أما الأمم التى استعد أهلها للقرن القادم فستعرف كيف تستخرج الغذاء من مصادر لاتخطر على البال ، وقد بدأنا نرى الآن أنا نستطيع أن نأخذ قطعة حجر ونحللها ونصنع منها مواد غذائية ، لأن كل ماق الأرض صالح للتحويل إلى مواد غذائية ، بل إن مشكلة الطاقة نفسها ستجد ألف حل ، وهذا فسيعيش حياة طبيعية أولئك الذين يعرفون كيف يتصدون ذلك

إنه تحد عالمى سيلبث فيه الذين يعرفون كيف يحلون مشاكل الغد ولايهلكون تحت ثقل مشاكل طبيعية بسيطة نسبيا مثل زيادة السكان أو صعوبات المواصلات أو متاعب المرور .

هذا عن عنصر القوة الأول فى عالم الغد وهو عنصر العلم العمل المتطور الخلاق ويبقى بعد ذلك العنصر الثانى وهو عنصر المال ، والعرب اليوم يملكون أضخم أرصدة من الأموال عرفها التاريخ ، ترى كيف سيستطيعون استخدام أموالهم فى مواجهة التحدى القائل ؟

ذلك هو الموضوع الثانى الذى خصص له سرفان شرايبر جزءا ضخما من كتابه

البقية فى العدد القادم